ممّيزاتٌ أنطاكيّة

المتروبوليت سابا (اسبر)

كثيراً ما يسألني المؤمنون حول ماهيّة الصفات المِمّيزة للكنيسة الأنطاكيّة أو ما هي الروح الأنطاكيّة، وذلك خلال زياراتي الرعائية. لقد صيغ السؤال في اجتماعي الأخير بشبيبة لوس أنجلس بالشكل التالي: "ما هي المبادئ اللاهوتيّة المفتاحيّة التي تمّيز الكنيسة الأنطاكيّة؟"

بدءاً ما من مبادئ عقائديّة إيمانيّة للكنيسة الأنطاكية تختلف عن المبادئ العقائديّة الإيمانيّة للكنائس الأرثوذكسية الأخرى. اللاهوت واحد في كلّ الكنائس الأرثوذكسيّة، وكذلك الإيمان والعقيدة والروحانيّة والليتورجيا. ما يبدو تمايزاً له بطريقة عيش الإيمان المسيحي والتعبير عنه، وهذا لا ينفصل عن طباع الشعب وفكره وفلسفته، وكذلك لا ينفصل عن تاريخ كلّ كنيسة وما صاغه الروح القدس فيها في ما اختبرته خلال تاريخها من شدائد متنوعة وسلطة حاكمة، وما إلى ذلك.

من أهم صفات الكنيسة الأنطاكية أنّها، منذ بدء المسيحية، كنيسة متعددة الثقافات. فقد امتدت الجغرافيا الكنسيّة الأنطاكيّة على مساحة واسعة جدّاً في القرون الأولى. فوصلت إلى جنوب جبال طوروس (تركيا الحالية) شمالاً، وحتّى صحراء سيناء جنوباً، وامتدت شرقاً وصولاً إلى الهند. لذلك لا تزال تحمل لقب "أنطاكية وسائر المشرق". كما أنّ الكنيسة الجيورجية كانت تتبع لها حتّى القرن الرابع، ولذلك لا يزال دعاء (فيمي) البطريرك الأنطاكي يحتفظ بذكر "البلاد الكرجية"إلى الآن.

نتيجة ذلك لم تعرف الكنيسة الأنطاكيّة مشكلةً، لا في استعمال اللغة ولا الثقافة. فقد صلّى مؤمنوها وعبّروا باليونانية وثقافتها في الساحل السوري [كان يمتد آنذاك على كامل الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط]، وبعض المدن الداخلية الكبرى المتيوننة ثقافيّاً، وبالسريانيّة وثقافتها الساميّة في الداخل السوري، والأرمنيّة وثقافتها في الشمال (مملكة كيليكيا) والعربيّة وثقافتها في الجنوب (المقاطعة العربية)، بالإضافة إلى الآشوريّة والفارسيّة في ما بعد نهر الفرات.

أكتفي بمثال واحد على هذا الواقع الثقافي المتعدد. فالقدّيس سابا المتقدّس (٤٣٩-٥٣٢) أعطى الرهبان الأرمن الذين اختاروا الحياة الرهبانية في ديره، الواقع إلى اليوم، بالقرب من مدينة القدس، كنيسةً خاصّةً بهم كي يتّمموا صلواتهم اليومية باللغة الأرمنيّة، فيما كان وباقي الرهبان يصلّون باليونانية.

كانت بلاد الشام – وهي قلب الكنيسة الأنطاكيّة – ساحة صراع القوى العظمى عبر التاريخ، منذ أن بدأ تدوينه إلى الآن، ممّا جعلها تعيش وتتفاعل دوماً مع حضارات وثقافات مختلفة. هذا ساهم في تكوين الإنسان الإنطاكي إنساناً منفتحاً على الآخر، لا يخاف الدخول معه في حوار، ويتقّبل المختلف دونما قسر أو ضغط، ممّيزاً، في الوقت ذاته، بين فكره وفكر الآخر. تلاقح الحضارات أنتج خصوبةً فكريةً عند الإنسان الأنطاكي، وفكراً خلّاقاً، وصلابةً في الحفاظ على ذاته مع مرونة في التعاطي مع الآخر. فلم تلعب، صدفةً، الكنيسةُ الأنطاكية دورَ الوساطة بين الكنائس الأرثوذكسيّة، وحوار الحياة مع الكنائس غير الأرثوذكسية والإسلام.

كذلك فإنّ تاريخها الثقيل وعيشها منذ القرن السابع تحت حكم غير مسيحي ساهما في تطهيرها من حلم بناء مملكة مسيحية على الأرض، فلم تعرف نظرية التناغم (السيمفونيّا) بين الكنيسة والدولة (النسر ذي الرأسين). كما أنّ توالي النكبات والحروب بين البيزنطيين والمسلمين أوّلاً، ثمّ الفرنجة (الصليبيين) لاحقاً، فالحكم الأجنبي وصولاً إلى انتهاء الانتداب الفرنسي في القرن العشرين جعل لاهوت التجسّد الهويّة الروحيّة الأولى في الكنيسة الأنطاكية، ممّا أثّر في صياغتها كنيسة اسخاتولوجية (أُخروية)، أي تتطلّع إلى الأبدية. فالشدائد والاضطهادات المتوالية جعلتها تتوّجه إلى الله طلباً للتعزية والثبات والحماية. لقد حرّرها التاريخ من البعد القومي والإثني، فكان لاهوتها صافياً من التماهي القائم بين البعدين الديني والقومي.

هذا ساعدها على أن تطلب المسيح أوّلاً، وتنظم وجودها بالاستناد إليه، والتعاون مع بعض الكنائس الأرثوذكسية التي استطاعت تقديم المعونة لها في أوقات معّينة. هذا التحرّر من الإثنية جعلها، في أميركا الشمالية، أولى الكنائس الأرثوذكسيّة التي تفتح أبواب البشارة للمهتدين إلى الأرثوذكسيّة. هذا لم يتّم صدفةً، بل بسبب تراثها الذي نقّاه الله عبر التاريخ الثقيل الذي عاشته

ولا تزال. لم يسمح لها التاريخ بمتابعة التبشير، فانحصرت طوال قرون من الظلم والاضطهاد في الحفاظ على استمرار وجودها وتغذية مؤمنيها، وحالما ساعدتها الظروف في نقل جوهرة إيمانها الكثيرة الثمن سارعت لتكون سبّاقة في هذا المضمار.

ولأنّها عاشت قروناً تحت حكم غير مسيحي تخلّصت من تجربة استخدام الأرثوذكسية لمصلحة الدولة القومية، فكان لاهوتها الكنائساني صافياً نقياً. أذكر تماماً مواقف كبار أساقفتها ولاهوتييها في السبعينيّات من القرن الماضي بخصوص مستقبل الكنيسة الأرثوذكسية في أميركا الشمالية. كانت رؤيتهم نابعة من الرؤية اللاهوتية الأرثوذكسية الكنائسانية. للأسف صار الحلم اليوم بعيداً بسبب الصراع الجيو سياسي الذي تشهده الكنائس والبلدان الأرثوذكسية حالياً.

عيشها منذ القرن السابع في ظل حكم غير مسيحي عرّضها للتقّلب ما بين الاضطهادات المتنوعة، لكن على الرغم من ذلك، وحيثما استطاعت، كانت تتفاعل مع محيطها ومع الحكّام ومواطنيها من مختلف المذاهب، وبقيت شاهدةً لإيمانها وروحانيّتها ولاعبةً دوراً مهمّاً، في بعض الأزمان، في تقّدم المجتمعات التي تعيش فيها.

ففي الفترة الأموية (٦٦٢-٧٥٠م) كانت الحرّية الدينية لا تزال متوفرة، والمناظرات الدينيّة تجري علناً في ساحات دمشق. وقد لعب المسيحيّون دور الترجمة وحفظ المال وكان منهم وزراء. أمّا في الفترة العبّاسية (٧٥٠- ١٢٥٨م) فلعبوا دور نقل الثقافات والعلوم من اليونانيّة والسريانيّة إلى العربيّة، وكان أطباء الحكّام مسيحيّون. وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ارتفعت نسبة أعدادهم ولعبوا الدور الأهمّ في نمو الوعي الحضاري والسياسي والثقافي، فانتشرت مدارسهم، في كلّ مكان، وهم مستمرون إلى اليوم في الشهادة لإيمانهم بكلّ ما أُوتوا من قوّة وقدرة ونعمة.

لمحة سريعة على جاء في هذا المقال تبّين كمّ التشابه القائم بين أبرشيتنا الأنطاكية في أميركا الشمالية وبين خبرات البطريركية الأنطاكية. من المجتمع الثقافي المتنوع، إلى اللغات إلى الانتماء الوطني لا القومي بمعناه الضيّق، كم يفيدنا أن نطّلع على هذه الخبرات ونستلهمها في مواجهة التحديات الكثيرة التي تواجهها أبرشيتنا اليوم.